

(الظل في) الميثولوجيا والمدونة التراثية والدينية والصوفية

فاطمة بنت عبد الوهبي

أولاً: الظل في الميثولوجيا:

الهامة / الصدى: روح الميت

عن العرب قديماً: "يقال للرجل إذا مات ضحا ظله لأنه إذا مات صار لا ظل جاء له" (1) وهذا مرتبط بالروح وعلاقتها بالحياة والخلود وخروجها من الجسد.

على المستوى الأنثروبولوجي عاشت لدى العرب أسطورة مرتبطة بهذا الظل المغادر بهذا الكائن الشبحي، لذلك كانوا أيضاً يقولون أصبح فلان هامة إذا مات. فما علاقة الظل بهذه الهامة؟ يقول ابن منظور في لسان العرب: "الهامة رأس كل شيء من الروحانيين... قال الأزهرى: أرد اللبث بالروحانيين ذوي الأجسام القائمة بما جعل الله فيها الأرواح" (2) وهذا المدخل اللغوي الذي يسبق تعريفه للهامة مهم من حيث علاقته الوثيقة بالروح، وعلاقة الروح بالتالي بالموت.

أما ما هي الهامة؟: فلقد عاشت لدى العرب في الجاهلية أسطورة تقول إن روح القتيل الذي لم يُدرك بثأره تصير هامة (طائر يشبه البومة) فتصيح عند قبره: اسقوني، اسقوني! فإذا أدرك بثأره طارت. ومنه قول ذي الأصبع العدواني:

يا عمرو، إلا تدع شمتي ومنقصتي
أضربك حتى تقول الهامة اسقوني (3)

وقد أورد ابن منظور قولاً نسبته إلى أبي عبيدة يقول فيه عن الهامة: "إن العرب كانت تقول إن عظام الموتى وقيل أرواحهم تصير هامة فتطير، وقيل كانوا يسمون ذلك الطائر الذي يخرج من

(1) — لسان العرب ، ابن منظور، بيروت دار لسان العرب، د.ت. مادة ظل.

(2) — المصادر السابق، مادة هوم.

(3) — اللسان، مادة هوم.

هامة الميت [أي رأسه] الصدى [ذكر اليومة فنفاه الإسلام ونهاهم عنه⁽¹⁾]، وهذا القول يوسع علاقة الهامة؛ فلا يربطها فقط بحالة القتل الذي لم يُدرَك ثأره، فهو قول يربطها بأرواح الموتى عامة. وهذا ما يجعلها وثيقة الصلة بالروح أو الظل المغادر الذي شبح الجسد.

وهذا الاعتقاد بالأشباح أو الأطياف قديم وشائع في عدد من الثقافات وهو اعتقاد قائم على فكرة "أن روح الإنسان (أو روح أي شيء) هي شكل في داخل شكل مزود بإرادة وحركة خاصة به. والشبح طيف أو خيال شخص ميت. وكثيراً ما كانت الأطياف تعد الهامات أو تحذيرات سابقة... وتعد بعض الأرواح خيرة... ولكن معظمها يعد متشعباً بالانتقام.. وأكثرها شراً أرواح الأشخاص الذين ماتوا موتاً عنيفاً كالمنتحرين... وهناك تقاليد كثيرة خاصة بالدفن نبعت من الرغبة في تهدئة الموتى وإبعادهم عن تتبع الأحياء...⁽²⁾.

ولكن إن ارتبط الظل أو الكائن الشبحي للروح بالموت، فقد ارتبط أيضاً بأساطير الخلق الأولى، كما سنرى في تفصيل القول عن الظل في المدونة الصوفية، وبانقسام الخلية الأصلية للكاوس البدئي. ففي الثقافة التاوية هناك أسطورة "Yang — Yin الين واليانغ (Ch) الأثيران اللذان خرجا من انقسام الخلية الأصلية للكاوس البدائي تشي chi الين مؤنث مظلم سلبي وهو من الأرض. ويرمز له بخط منقسم أو منكسر. اليانغ مذكر، مشرق إيجابي، وهو من السماوات، ويرمز له بخط غير منكسر... والين واليانغ قاعدة الثنوية الأساسية، حيث القوى المتناوبة والمتعارضة تقوم بخلق الكون"⁽³⁾.

فمن تفاعل هاتين القوتين يتخلق العالم، وبفضلها يتم التوازن للعالم، فلا تلغي إحداها الأخرى. فبحسب هذه الأسطورة يسود اليانغ السماء وتسود الين في الأرض. فالين هو العتم والظل والرطوبة والغموض، أما اليانغ فهو الحرارة والقوة والإنجاز والوضوح.⁽⁴⁾ وقد أطلق الفكر اليوناني على المبدأ السالب الذي يوازي الين اسم الايروس، وعلى المبدأ الموجب اسم اللوغوس، حيث عالم الرغبات والغرائز في الأول، وحيث المنطق والتفكير يغلب في الثاني⁽⁵⁾. وسنرى — فيما يأتي — كيف سيطور علم النفس على يد يونغ هذه الفكرة في مقولة الأنيميا والأنيموس، حيث الانيميا تسود في المرأة والأنيموس يسود في الرجل. وترمز الثقافة التاوية لهذه الفكرة التي تحوي داخلها مبدأ الخلق السالب والموجب بدائرة على هذا النحو⁽⁶⁾:



(1) — اللسان، مادة هوم.

(2) — الموسوعة العربية الميسرة (القاهرة، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر 1965م) مادة طيف.

(3) — معجم الأساطير، ماكس شابيرو ورودا هندريكس، ترجمة حنا عبود (دمشق، دار علاء الدين سنة 1999م) ص 268، وينظر كذلك

قاموس أساطير العالم، آرثر كورنيل، ترجمة سهى الطرنجي (بيروت، المؤسسة للدراسات والنشيط الأولى سنة 1993م) ص 123.

(4) — لغز عشتار فراس السواح، دمشق، دار المنارة. ط الرابعة، 1990م ص 76.

(5) — المصادر السابق، ص 76.

(6) — المصادر السابق، ص 168.

وهكذا بات واضحاً للعلماء أنهم أمام ظاهرة جديدة تتطلب دراسة وافية. وتبين من الأبحاث المتواصلة أن تألق الهالة الضوئية يتوقف على سبب وفاة الإنسان. فإذا كانت الوفاة طبيعية خمدت الهالة الضوئية في غضون يومين، ثم تستقر كونها ضعيفة. أما إذا كانت الوفاة طبيعية فيلاحظ الوميض الشديد في غضون 20 دقيقة الأولى بعد الوفاة، ثم تخفت الهالة بسرعة حتى تبلغ وضع الاستقرار. علماً أنه في الوفاة التي ترافقها آلام شديدة يلاحظ تألق الضوء وضموره بشدة. ولوحظ أيضاً أن تألق الضوء يجري أثناء الليل بدرجات متفاوتة⁽¹⁾.

هكذا إذاً يقرر العلم أن هالة ضوئية تحيط بالإنسان إذا مات، وهو ما أشارت إليه المدونة التراثية، وما ستناقشه من زوايا أخرى المدونة الصوفية والفلسفية التي تملك مقولتها الخاصة حول الظل والوجود والخلود، وهو موضوع هذه الدراسة وما يتوالى من فقرات.

ثانياً: الظل في المدونة التراثية والدينية والصوفية:

الظل والموت:

ضحا ظله:

جاء في لسان في مادة ضحا "الضحى من طلوع الشمس إلى أن يرتفع النهار وتبييض الشمس جداً... وليس لكلامه ضحى أي بيان وظهور.. وضحى عن الأمر بينه وأظهره... وفي حديث أبي بكر: إذا نصب عمره وضحا ظله أي مات. يقال للرجل إذا مات وبطل: ضحا ظله. يقال ضحا الظل إذا صار شمساً.

وإذا صار ظل الإنسان شمساً فقد بطل صاحبه ومات. ابن الاعرابي: يقال للرجل إذا مات ضحا ظله لأنه إذا مات صار لا ظل له. وفي الدعاء لا أضحي الله ظلك: معناه لا أماتك الله حتى يذهب ظل شخصك...⁽²⁾

هذا نص واضح الدلالة على عمق العلاقة بين مفهوم الظل وبين الموت، ولا بد — بالضرورة — أن هناك في العمق علاقة لهما بمفهوم الزمن والصورورة، والخلود. وهذا ما يستدعي التفكير مباشرة بالشجر والظلال وتحديدًا بالشجرة العظمى أم الشجر، شجرة الخلد. لنمض نتتبع هذا الخيط.

جاءت في سورة طه قصة الخلق والغواية والخروج من الجنة، قال تعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى. فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يَخْرُجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى، إِنَّ لَكَ أَلَا تَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى. وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى. فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى. فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ

(1) — ينظر جريدة الشرق الأوسط عدد الثلاثاء 23 مارس 1995م خبر طبي بعنوان (الروس يدرسون المظهرين الداخلي والخارجي) — هالة ضوئية تلف الإنسان بعد وفاته.

(2) — لسان العرب مادة "ضحا".

عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدي. قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فأما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى⁽¹⁾.

فهل يمكن أن نتجاهل معنى كلمة (تضحى) في الآية الكريمة في سياق الحديث عن البقاء والخلد مع ما تحمله من دلالات تربطها بالموت والفناء. إننا يمكن أن نحمل هذا المعنى القوي في هذا السياق ونضيفه إلى ما قيل عن شجرة الخلد في كتب التفسير؛ يقول ابن كثير في تفسيره:

"فلم يزل بهما الشيطان حتى أكلا منها، وكانت شجرة الخلد يعني التي من أكل منها خلد ودام مكثه. وقد جاء في الحديث ذكر شجرة الخلد، فقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة عن أبي الضحى سمعت أبا هريرة يحدث عن النبي ﷺ قال: "إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها وهي شجرة الخلد" رواه الإمام أحمد⁽²⁾.

الظل / الشمس:

يلفت النظر في نص ابن منظور قوله: يقال للرجل إذا مات وبطل: ضحا ظله إذا صار شمساً وإذا صار ظل الإنسان شمساً فقد بطل صاحبه ومات".

هذا القول يحيل إلى رؤية للظل تدرجه في صيرورته إلى الشمس. الضوء يمحوها. هكذا نتعلم من علاقتنا مع الضوء⁽³⁾ وفلسفياً يمكن النظر إلى أن الضوء منطقة غيب واحتجاب.

وحينما يقال إذا مات الإنسان: ضحا ظله، ويقرر العرب معنى ذلك بأن الظل صار شمساً فهذا يعني مآل الظل إلى أصله، إذ هو في صيرورته شمساً يدخل منطقة العماء. يقول ابن منظور: "الظل في الحقيقة إنما هو ضوء شعاع الشمس دون الشعاع، فإذا لم يكن ضوء فهو ظلمة وليس بظل".⁽⁴⁾

إذا حينما يؤول الظل إلى أصله يندرج في حيز النور العظيم فيختفي، فالنور العظيم — على عكس ما نتصوره للوهلة الأولى — منطقة غيب وعماء واحتجاب. يقول ابن عربي:

"الظلال محبوبة أبداً عن موجدتها وظهورها عند طلوع الأنوار على من تولدت عنه. وهي أبداً تطلع مبن خلف حجاب أسبابها فإن سبحات الوجه لا تقف لها الأكوان. وقال: إذا أحاطت الأنوار بالشمس اندرج ظله فيه وانقبض إليه، كما قال سبحانه: (قبضاً يسيراً) حين جعل الشمس على مد الظل دليلاً".⁽⁵⁾

(1) — القرآن الكريم، سورة طه، من الآية (115) — (123).

(2) — تفسير ابن كثير بيروت، دار المعرفة، ط 2، 1407 هـ / 1987 م، ج 176/3.

(3) — مقالة (الذات في عين المادة 2 — 2) فاطمة الوهبي جريدة الجزيرة، زاوية (الحد 1417/4/4 هـ — 8/18 م. 1998).

(4) — لسان العرب، مادة ظلل.

(5) — كتاب العبادة. محيي الدين بن عربي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، القاهرة، مكتبة القاهرة، ط. الأولى 1389 هـ / 1969 م، ص 79.

إن العالم عند ابن عربي ليس إلا ظهور صور الأعيان، وذلك الظهور هو النفس الرحماني⁽¹⁾ فيبدو العالم، عالم الصور والموجودات، ليس سوى ظل لهذا الفيض الإلهي. ولعله من هذا المعنى العميق يمكن فهم الحديث النبوي: "السلطان ظل الله في الأرض" يقول ابن عربي: "كل ما سوى الله ظل له. ولما كان السلطان مجمع الصفات الإلهية قال فيه صلى الله عليه وسلم: "السلطان ظل الله في الأرض، يأوي إليه كل مظلوم."⁽²⁾

وفي ضوء ما تقدم يمكن فهم فكرة الظل وقد ارتبطت بالموت، حيث تمثل الروح بالضوء المستقر في البدن، فإذا مات الإنسان أشمس وأصبح بلا ظل، وانتقلت الروح/الظل، التي هي ضوء ينعكس، إلى عالمها الأول. يقول الجرجاني في تعريفه للنفس:

"وهي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية وسماها الحكيم الروح الحيوانية فهو جوهر مشرق للبدن فعند الموت ينقطع ضوءه⁽³⁾ عن ظاهر البدن وباطنه..⁽⁴⁾" ويقول ابن عربي مستخدماً مجاز الشمس والوضوء والظلمة:

"ولما كانت الحياة في الأجسام بالعرض قام بها الموت والفناء فإن حياة الجسم الظاهرة من آثار حياة الروح، هي كنوز الشمس الذي في الأرض من الشمس: فإذا مضت الشمس تبعها نورها وبقيت الأرض مظلمة كذلك الروح إذا رحل عنها الجسم إلى عالمه الذي جاء منه تبعته الحياة المنتشرة منه في الجسم الحي، وبقي الجسم في صورة الجماد في رأي العين فيقال: "مات فلان. وتقول الحقيقة: رجع إلى أصله (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى)."⁽⁵⁾

ولأن هذه الروح الظل تعود إلى بارئها فإن الرؤية الدينية كانت تنتظر لسجود الكافر لغير الله نظرة تفصل بين الجسد وحركة الظل. وهذا ما يجعلنا نفهم لماذا جاء في التفسير للآية الكريمة (ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال) حيث "جاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله..⁽⁶⁾" وفي حديث ابن عباس: الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله.

إن مفهوم الظل كما ظهر مما تقدم مفهوم عميق ومتداخل مع فكرة الوجود المطلق والعدم، ومع فكرة التجلي والعماء، ومع فكرة الموت والخلود. ولاشك أن ارتباط الظل/الشمس بالموت وعنف التحول إلى عالم الغيب يجعلنا نعيد التفكير في مسألة النور والظلمة على أساس القضية الميتافيزيقية والانطولوجية معاً كما تعكسها الرؤية الصوفية. تلك الظلمة التي يقول عنها الجرجاني: "الظلمة عدم

(1) — شرح الأستاذ عبد الرزاق الفاشاني على فصوص الحكم لمحيي الدين بن عربي، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، ط 2، 1386/1966م، ص 224.

(2) — كتاب العبادلة، ابن عربي، ص 78.

(3) — الحمزة المضمومة بعد الواو الساكنة ترسم على السطر.

(4) — التعريفات الجرجاني، بيروت، مكتبة لبنان، سنة 1978م، ص 312.

(5) — الفستوحات المكية، ابن عربي، تحقيق د. عثمان نجيب ومراجعة د. إبراهيم مذكور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1392 هـ / 1972م، السفر الأول، الجزء الرابع، ص 244 — 245.

(6) — لسان العرب، ابن منظور، مادة ظلل.

النور فيما شأنه أن يستتير. والظلمة الظل المنشأ من الأجسام الكثيفة قد يطلق على العلم بالذات الإلهية فإن العلم لا يكشف معها غيرها إن العلم بالذات يعطي ظلمة لا يدرك بها شيء كالبصر حين يغشاه نور الشمس عند تعلقه بوسط قرصها الذي هو ينبوعه فإنه حينئذ لا يدرك شيئاً من المبصرات⁽¹⁾، تلك الظلمة التي تحيل إلى فكرة العماء، حيث صعقة النور، وهي من المسائل التي ناقشتها المدونة الكلامية والصوفية وذلك موضوع الفقرات التالية.

الظل عند التوحيدي:

الظل / الوجود الإضافي: الممكن والرؤيا:

في كتاب الإمتاع والمؤانسة يورد التوحيدي محاورة بينه وبين شيخه أبي سليمان يتحدث فيها عن التمكين، حيث يرى أبو سليمان أن "التمكين وحده اسم مجرد لشيء محدد، والأسماء المحددة دلالتها على الأعيان لا على صفات الأعيان أو ما يكون من الأعيان". ويرى أن التمكين معتبر بما يضاف إليه، ويناط به، فإن كان من القبيح فهو قبيح، لأنه علة القبيح، وإن كان من الحسن فهو من الحسن لأنه سبب الحسن. ثم يعرف الإضافة التي حددها بالتمكين، يقول: "والإضافة قوة إلهية سرت في الأشياء سرياً غريزياً قاهراً متمكناً قاسراً، لا جرم لا ترى حسياً أو عقلياً أو وهمياً أو ظنياً أو علمياً أو عرفياً أو عملياً أو حلمياً أو يقظياً إلا والتصاريح سارية فيها، والإضافة حاكمة عليها. وهذا لأن الأشياء بأسرها مصيرها إلى الله الحق، لأن مصدرها من الله الحق، فالإضافة لازمة، والنسبة قائمة، والمثابرة موجودة، ولولا إضافة بعضنا إلى بعض ما اجتمعنا ولا افترقنا، ولولا الإضافة بيننا الغالبة ما تفاهمنا ولا تعاوننا."⁽²⁾

ثم عقب على هذا الكلام مؤكداً علاقة الإضافة والوجود الإضافي بالظل والانتلاف والاختلاف، يقول: "إذا كنا بالتضاييف نتوالى، فبأي شيء بعده نتعادي؟ قال: هذا أيضاً بالإضافة، لأن الإضافة ظل، والشخص بالظل يأتلف، وبالظل يختلف. وقال: ويزيدك بياناً أن العدم والوجود شاملان لنا، سائران فينا، فبالوجود نتصادق، وبالعدم نتفارق."⁽³⁾

هكذا نرى أن الإضافة وهي القوة الإلهية السارية في الأشياء سرياً غريزياً — كما قال — هي إضافة أو وجود ظلي كما جاء في آخر نصه، فالإضافة ظل — كما قال — وسنرى كيف أن هذه الفكرة ستمتد إلى التراث الصوفي، وسنعثر عليها بشكل قوي ومكثف عند ابن عربي تحت مسمى الوجود الانفصالي والانبعاثي المرتبط بالظل مباشرة، كما سيحرر من بعد ذلك علي الجرجاني في كتابه التعريفات مصطلحات كبرى تحت مصطلح الظل هي: الوجود الإضافي، والظل الأول، وظل الإله، حيث يقول في ربط واضح بين الظل والوجود الإضافي وبين الممكن أيضاً، مثله في ذلك مثل

(1) — التعريفات، علي الجرجاني، ص 148.

(2) — الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، صححه وضبطه أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت، المكتبة العصرية، 1373 هـ 1953 م،

ج 1، 214 — 215.

(3) — المصادر السابق، ج 1/ 215.

التوحيدي في مفتتح حديثه عن الظل:

"الظل ما نسخته الشمس وهو من الطلوع إلى الزوال وفي اصطلاح المشايخ هو الوجود الإضافي الظاهر بتعينات الأعيان الممكنة وأحكامها التي هي معدومات ظهرت باسمه النور الذي هو الوجود الخارجي المنسوب إليها فيستر ظلمة عدميتها النور الظاهر بصورها صار ظلاً لظهور الظل بالنور وعدميته في نفسه قال الله تعالى: "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل" أي بسط الوجود الإضافي على الممكنات." (1)

وعن هذا الوجود الانبعاثي الفيضي المرتبط بظهور الممكنات لحظة يمد الله ظله عليها وتظهر إلى الوجود يقول ابن عربي:

"وذلك هو الوجود الخارج المنبسط على الماهيات القابلة له الظاهرة به، وهو إذا اعتبر من حيث أنه واحد أي من حيث حقيقته كان اسم النور من أسماء الله المخبر عنه في التنزيل بقوله تعالى: (الله نور السموات والأرض) وباعتبار وقوعه على القوابل والمحال وعروضه للماهيات سمي الظل الممدود في قوله تعالى: (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل)". (2)

الظل / الرؤيا / الحلم:

واللافت للنظر في حديث التوحيدي عن الظل أنه يأتي في سياق حديثه عن التمكين والممكن، الذي يُشبهه بالرؤيا في مقابل اليقظة، يقول التوحيدي مسنداً ما يرويه إلى ابن يعيش الرقي:

"قال: الممكن شبيه بالريا لا بدن له مستقل به، ولا طبيعة يتحيز فيها. ألا ترى أن الرؤيا تنقسم على الأكثر والأقل والتساوي، وكما أن الرؤيا ظل من ظلال اليقظة، والظل ينقص ويزيد إذا قيس إلى الشخص؛ كذلك الممكن ظل من ظلال الواجب، فطوراً يزيد تشابهاً للواجب، وطوراً ينقص تشاكها (3) للممتنع، وطوراً يتساوى بالوسط." (4)

وبعد استطراد طويل حول الواجب يقول:

"الرؤيا ظل اليقظة، وهي واسطة بين اليقظة والنوم، أعني بين ظهور الحس بالحركة، وبين خفائه بالسكون. قال: والنوم واسطة بين الحياة والموت، والموت واسطة بين البقاء الذي يتصل بالشهود وبين البقاء الذي يتصل بالخلود." (5)

وهكذا يبدو الظل منطقة متوسطة بين الموت والحياة، كما بدا الأساس واسطة الوجود الانفصالي الذي يمس الظل بسببه واسطة وتظهراً للوجود في الوقت ذاته، هذه الواسطة هي التي

(1) — التعريفات، الجرجاني، ص 148.

(2) — شرح الأستاذ عبد الرزاق الفاشاني على فصوص الحكم لمحيي الدين بن عربي، ص 33.

(3) — المصدر السابق، ج 216/1، وشاكه الشيء شاكه وقاربه.

(4) — المصدر السابق، ج 216/1، وشاكه الشيء شاكه وقاربه.

(5) — المصدر السابق، ج 217/1 — 218.

جعلته — عند التوحيدي — شبيهاً بالرؤيا، أو بالحلم وسنرى — فيما يأتي من فقرات — كيف أن حواء عند ابن عربي في وجودها الانفصالي الاتبعائي من آدم جاءت عبر مفهوم ظلي أثناء نوم آدم، وبذلك تبدو حواء كحلم⁽¹⁾.

هذا الربط الواضح بين الظل والرؤيا في مقابل اليقظة يأتي لاشك من التفكير في ربط الظل/الرؤيا بالجانب الروحاني بفكرة النور، النور الذي يحجب عن الجسد في حال الموت. فيضحا الظل — حسب عبارة المدونة التراثية — أو حال النوم، حيث يمتد نوع من الحجب شبيه بالموت، حتى قيل إن النوم هو الموت الأصغر. يقول الجرجاني:

"النفس وهي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، وسماها الحكيم الروح الحيوانية فهو جوهر مشرق للبدن فعند الموت ينقطع ضوءه⁽²⁾ عن ظاهر البدن وباطنه وأما في وقت النوم فينقطع عن ظاهر البدن دون باطنه. فثبت أن النوم والموت من جنس واحد، لأن الموت هو الانقطاع الكلي والنوم هو الانقطاع الناقص، فثبت أن القادر الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أضرب: الأول إن بلغ ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهرة وباطنة فهو اليقظة، وإن انقطع ضوءها عن ظاهره دون باطنه فهو النوم أو بالكلية فهو الموت."⁽³⁾

إن الظل/الرؤيا الذي يسمي واسطة — حسب عبارة التوحيدي — بين اليقظة والنوم أي بين ظهور الحس بالحركة وبين خفائه بالسكون بين البقاء المتصل بعالم الشهادة والعالم المرئي وبين الفناء عالم الغيب وعالم الخفي — يحيل إلى ما تملكه رؤية إلى الظل تموضعها فلسفياً وفق تقابلات مهمة؛ فالظل مربوط بعالم النور والروح أي إلى عالم الثبات والوحدة وعالم الغيب، في مقابل أن الصور والأجساد مشدودة إلى العالم المرئي المشهود، وهي متغيرة متحركة متنوعة متكثرة.

الظل عند ابن عربي:

يأتي حديث ابن عربي عن الظل في تضاعيف مسائل كبرى، وهو لا يخصص فصلاً للحديث عنه لكن يمكن تجميع جملة آرائه لنتتبع الخيوط التي تشكل نسيج رؤيته للظل.

في الباب الذي يتحدث فيه ابن عربي عما يسميه (دورة الملك) وهي عنده "عبارة عما مهد الله من آدم إلى زمان محمد ﷺ من الترتيبات في هذه النشأة الإنسانية، بما ظهر من الأحكام الإلهية

(1) — يقول ابن عربي: "فأما حواء — عليها الصلاة والسلام — فمن الوحدانية لأن الفرد لم يعلم حتى استيقظ، وخلقته كاملة على صورتها من حي نائم كما خلق آدم — عليه الصلاة والسلام — على صورته من غير مزيد تعقل نفسه فيها..." "رسائل ابن عربي (حيدر آباد الدكن ط 1، سنة 1367 هـ) رسالة الألف ص 89، ويمكن ملاحظة خروجها إلى الوجود وتسلسلها مثل حلم، وهو ما يمكن ربطه بعد ذلك بما يوجد عند يونغ من نظرة إلى المرأة تربطها مباشرة بما يسميه القارة السوداء المشيرة إلى الغموض والمحيلة إلى منطقة اللاوعي. وينظر كذلك ربط باشلار لفهوم الظل بالمخيلة والجانب المؤنث من الإنسان. ينظر ص(2) من هذه الدراسة.

(2) — في الأصل ضوءه وضوءها.

(3) — التعريفات، 262 — 253.

فيها⁽¹⁾ يستخدم عدداً من الألفاظ، التي سرعان ما يتضح للقارئ كلما توغل في هذا الباب أنها أشبه بالمصطلحات، وهي تعد مفاتيح أساسية لرؤيته لكيفية انبعاث الوجود، فكلمات مثل: الوجود والانفصال، وعمر، والظل وما يتبعه من صفات متجذرة في المكانية كلها كلمات محملة بالروح المصطلحية. يقول ابن عربي:

"وكل منفصل عن شيء فقد كان عامراً لما عنه انفصل، وقد قلنا إنه لا خلاء في العالم. فعمر (الشيء المنفصل) موضع انفصاله بظله، إذ كان انفصاله إلى النور، وهو الظهور. فلما قابل النور بذاته، امتد ظله، فعمر موضع انفصاله: فلم يفقده من انفصل عنه. فكان مشهوداً لمن انفصل إليه ومشهوداً لمن انفصل عنه. وهو المعنى الذي أراده القائل بقوله: شهدتك موجوداً بكل مكان."⁽²⁾

ويواصل ابن عربي حديثه عن الوجود المنفصل وعن الظل قائلاً:

"قمن أسرار العالم، أنه ما من شيء يحدث إلا وله ظل يسجد لله، ليقوم بعبادة ربه على كل حال، سواء أكان ذلك الأمر الحادث مطيعاً أو عاصياً. فإن كان من أهل الموافقة، كان هو وظله على السواء، وإن كان مخالفاً ناب ظله منابه في طاعة الله. قال تعالى: (وظلالهم بالغدو والاصال)."⁽³⁾

ويواصل حديثه مفسراً حديث السلطان ظل الله في الأرض قائلاً:

"السلطان ظل الله في الأرض" إذا كان ظهوره بجميع صور الأسماء الإلهية، التي لها الأثر في عالم الدنيا. والعرش ظل الله في الآخرة. فالظلال، أبداً، تابعة للصورة المنبعثة عنها حساً ومعنى (فالظل) الحسي قاصر، لا يقوى قوة الظل المعنوي للصورة المعنوية، لأنه (أي الظل الحسي) يستدعي نوراً مقيداً، لما في الحس من التقييد والضيق وعدم الاتساع. ولهذا نبهنا على الظل المعنوي بما جاء في الشرع من أن "السلطان ظل الله في الأرض فقد بان لك بأن الظلال عمرت الأماكن."⁽⁴⁾

إن القارئ لنص ابن عربي السالف يلحظ أن مفهوم الظل عنده ملازم لعدد من الأفكار التي تحدد عناصره:

أولها: ارتباطه بالمصدر العلوي الذي عنه يحدث الفيض والظهور في صور محسوسة.

ثانيها: ارتباطه بالصورة، وهو يؤكد أن الظل تابع للصورة المنبعث عنها حساً ومعنى. ومن هنا جاء تقسيمه للظل المعنوي والظل الحسي. وهذا يفسره نظرته إلى أن نفثة الرحمن تظهر الموجودات في صورة محسوسة، ولذلك فالظل أثر هذا الظهور والإيجاد

(1) — الفتوحات المكية، السفر الثاني، ص 298.

(2) — الفتوحات المكية، السفر الثاني، ص 303.

(3) — الفتوحات المكية، السفر الثاني، ص 303.

(4) — الفتوحات المكية، السفر الثاني، ص 303.

الفيضي النفثي، ومن هنا يمكن فهم مقولة (السلطان ظل الله في الأرض). إذ ظهوره هو ظهور بجميع صور الأسماء الإلهية كما قال.

ثالثها: وهو مرتبط بما قبله إذ الصور تحتاج إلى التوضع حسيًا ومكانيًا، ومن هنا يرتبط حديث ابن عربي عن الظل بالمكان (فالظلال عَمَرَت الأماكن) وعنده أن (لا خلاء في العالم) فالظل امتلاء، مقابل الإصرار على ألا خلاء في العالم، ولذلك كلما تحدث عن الظل تظهر مفردات الحيز والامتداد والموضع الخ..

رابعاً: ارتباط الظل بالمكان مرتبط — كما قلت — بمقولته أن لا خلال في العالم، ومن هنا تأتي مفردة (عَمَر) واشتقاقاتها ملازمة لمفهوم الظل، وتبدو كلمة (عَمَر) وكأنها مصطلح فماذا يعني عنده؟ يقول في أول النص السالف: إن كل منفصل عن شيء فقد كان عامراً للذي انفصل عنه، وبما أنه لا خلاء في العالم فإن الشيء المنفصل يعمر موضع انفصاله. وهذا يعني أن كلمة عمر عنده مرادفه لملأ، لكن معنى عمر أيضاً مرتبط بمعنى الانفصال.

خامساً: يرتبط مفهوم الظل بمفهوم الانفصال، ويلحظ القارئ تلازم حضور كلمة الانفصال مع حديث ابن عربي عن الظل أو عما يسميه الوجود الانبعاثي (ولاحظ أن هذا شديد الصلة بالنقطة الأولى المشار إليها سلفاً عن المصدر العلوي والفيض) يقول: ابن عربي في أول نصه السالف:

"فعمر الشيء المنفصل موضع انفصاله بظله، إذ كان انفصاله إلى النور، وهو الظهور. فلما قابل النور بذاته، امتد ظله، فعمر موضع انفصاله، فلم يفقده من انفصل عنه. فكان مشهوداً لمن انفصل إليه. ومشهوداً لمن انفصل عنه.. فمن أسرار العالم أنه ما من شيء يحدث إلا وله ظل يسجد له.. سواء كان ذلك الأمر الحادث مطيعاً أو عاصياً.."⁽¹⁾

فالظل إذاً هو لحظة انفصالية عن الشيء الذي كان هو يملؤه، ولحظة الانفصال هذه هي لحظة إيجاد وحدوث، وهي لحظة وجودية مرتبطة بالظهور والانكشاف، وتجعل الشيء الظل المنفصل مرتباً مشهوداً. وهذا ما يجعل مفهومي العمر والانفصال أساسيين ومشتبكين في كونهما عنصرين أساسيين في تحديد ماهية الظل عند ابن عربي. إن الانفصال خيط يشبك الشيء الحادث بالشيء الموجد له والعمر / الملاء الذي يحدث الشيء المنفصل في المكان إذ يبرز (يظهر وينكشف)، ويتخذ له صورته المحسوسة في العالم. هذا الإيجاد هو إيجاد انبعاثي، وهو مرتبط بالنور. فالشيء كان في عماء مطلق إلى أن انفصل وقابل النور بذاته. فالظل ليس كينونة مظلمة، إنها دلالة الوجود ولحظته المنبعثة من الاحتجاب والعماء، ولذلك الظل وجود انبعاثي، وهو لحظة امتلاء، ولكنها لحظة مشدودة دائماً إلى الشيء المنفصلة عنه، ومن هنا فالظل/ الشيء المنفصل يحمل حنينه وشهوته للعودة إلى ما انفصل عنه، وهذا ما يفسر سلسلة الانفصالات/ الظلالات وأنواع وجودها عند ابن عربي وتراتبها

(1) — الفتوحات المكية، السفر الثاني، ص 303.

الذي يعبر عنه بالعقل الأول والنفس الكل. وإذا قلت: القلم الأعلى، فتفتن للإشارة التي تتضمن الكاتب وقصد الكتابة، فيقوم معك (عندئذ) معنى قول الشارع: (إن الله خلق آدم على صورته)⁽¹⁾ لقد ذكرت سالفاً أن مفهوم الظل يحيل إلى أنه لحظة وجود وانبعاث ولحظة امتلاء، وهي — كما يبدو من نصوص ابن عربي — لحظة مشدودة إلى الشيء المنفصلة عنه. وهو ما يذكره بصراحة في نصه السالف، وتوجهه فيه فكرة التماسل الكوني أو ما يسميه النكاح الساري، الذي به يستمر الكون ويتوالد، لأن الظهور/ الظل الذي هو لحظة الانفصال أو الوجود والبروز إلى عالم الشهادة من عالم الغيب والعماء مشدودة إلى التشكل والصورة إذ ينعكس عليه نور الموجد. ومن هنا يجد ابن عربي الخيط المرفه لمجازه البعيد الذي يربط فيه بوجه شبه بين اللحظة الجنسية الحسية بما يسميه العقل الأول واللوح المحفوظ. يقول ابن عربي بعد ذلك:

"فيكون أول منفصل فيها (أي في دورة الملك) النفس الكلية عن أول موجود وهو العقل الأول، وآخر منفصل فيها حواء، عن آخر موجود وهو آدم، فإن الإنسان آخر موجود من أجناس العالم."⁽²⁾

إنه حسب تراتبية الوجود والانفصال عنده تبدو حواء في وجودها الانفصالي في تراتبية تقابل النفس الكلية التي هي وجود منفصل عن العقل الأول، الذي يقابله من جهة ثانية آدم.

إذاً هذا العقل الأول هو ظل أول حسيما يمكن الاستنتاج من مصطلحات ابن عربي. ولكن ما لم ينص عليه صراحة من تسمية العقل الأول بالظل الأول سيذكره صراحة الجرجاني في كتابه التعريفات.

مصطلحات الظل عند السيد الجرجاني:

يحدد الجرجاني في كتابه التعريفات مصطلح الظل قائلاً:

"الظل ما نسخته الشمس وهو من الطلوع إلى الزوال. وفي اصطلاح المشايخ هو الوجود الإضافي الظاهر بتعينات الأعيان الممكنة وأحكامها، التي هي معدومات ظهرت باسمه النور الذي هو الوجود الخارجي المنسوب إليها، فيستر ظلمة عدميتها النور الظاهر بصورها صار ظلاً لظهور الظل بالنور وعدميته في نفسه قال الله تعالى: ألم تر إلى ربك كيف مد الظل أي بسط الوجود الإضافي على الممكنات.

الظل الأول هو العقل الأول لأنه أول عين ظهرت بنوره تعالى.

ظل الآله هو الإنسان الكامل المتحقق بالحضرة الواحدية."⁽³⁾

فها نحن الآن أمام ثلاثة مصطلحات للظل حسب المعجم الصوفي: الظل/ الوجود الإضافي،

(1) — الفتوحات المكية، السفر الثاني، ص 299 — 300.

(2) — الفتوحات المكية، السفر الثاني، ص 301.

(3) — التعريفات، ص 148.

(وقد مر الحديث عنه فيما تقدم)، والظل الأول، وظل الإله أو الإنسان الكامل.

الظل الأول / العقل الأول:

عرف الجرجاني الظل الأول بأنه "العقل الأول له أول عين ظهرت بنوره تعالى" (1) وفي موضع آخر يعرف الجرجاني مصطلح (البياض) (2) تعريفاً له علاقة مباشرة بمصطلح الظل الأول، يقول:

"البياض، العقل الأول فإنه مركز العماء وأول منفصل من سواد الغيب. وهو أعظم نيرات فلكه فذلك وصف بالبياض ليقابل بياضه سواد الغيب فيتبين بضده كما التبين، ولأنه هو أول موجود. ويُرجح وجوده على عدمه، والوجود بياض والعدم سواد، ولذلك قال بعض العارفين في الفقر إنه بياض يتبين فيه كل معدوم وسواد ينعدم فيه كل موجود، فإنه أراد بالفقر فقر الإمكان." (3)

ونلاحظ هنا أن تعريف (البيضاء)⁽⁴⁾ يركز على العقل الأول، ولذلك فالبيضاء مترادف للظل الأول. وذلك يحيل إلى التفكير بمصطلح الظل الأول من حيث كونه على الحقيقة أو المجاز، فمن جهة الظل ضوء وانعكاس من نور الله الذي انفتح من الغيب والعماء المطلق، وهذا الضوء/ الظل إشارة على الاتصال أو استمرارية الاتصال بالخالق وبمصدر النور. إنه آية توسط تحيل، من خلال ما يمكن رؤيته ولمس دلائله، إلى الخفي. ولذلك تتكرر في المدونة الدينية والصوفية خاصة مجازات الشمس والعين المجازية عين العقل وعين الروح. ولو عدت إلى نص الجرجاني أعلاه لرأيت أنه يعرف الظل الأول، بأنه العقل الأول لأنه أول عين ظهرت بنور الله.

فمصطلح الظل الأول — كما أسلفت — يتضمن الضوء والانعكاس معاً. وكونه يرتبط بالعقل الأول لا يعني ذلك أنه من باب المجاز، ويمكن لنص لابن عربي أن يفسر هذا على النحو التالي، إذ يقول:

"الصورة، وهي تنقسم قسمين: صورة جسمية عنصرية، تتضمن صورة جسمية خيالية، والقسم الآخر صورة جسمية نورية. فلنبتدئ بالجسم النوري فنقول: إن أول الجسم خلقه الله أجسام الأرواح الملكية المهيّمة في جلال الله، ومنهم العقل الأول والنفس الكل... اعلم أن الله - تعالى - كان قبل أن يخلق الخلق - ولا قبلية زمان، وإنما ذلك عبارة للتوصيل تدل على نسبة يحصل بها المقصود في نفس السامع، - كان - جل وتعالى في عماء، ما تحته هواء وما فوقه هواء. وهو أول مظهر إلهي ظهر فيه، سرى فيه النور الذاتى كما ظهر في قوله: (الله نور السموات والأرض) فلما انصبغ ذلك العماء بالنور فتح فيه صور الملائكة المهيّمن الذين هم فوق عالم الأجساد الطبيعية ولا عرش ولا مخلوق تقدمهم. فلما أوجدتهم تجلّى لهم، فصار لهم ذلك التجلي غيباً، كان ذلك الغيب روحاً لهم،

(1) - التعريفات، ص 148.

(2) — وفي مصطلحات ابن عربي أيضاً الدرة البيضاء هي العقل الأول ينظر التعريفات ص 293م، وكذلك يطلق مصطلح الورقاء لتقابل النفس الكلية/الروح المحفوظ، ويسمى العقل الأول (العقاب القلم) ينظر التعريفات ص 293.

(3) — التعريفات، ص 50.

(4) - التعريفات، ص 50.

أي لتلك الصور وتجلي لهم في اسمه الجميل فهاموا في جلال جماله، فهم لا يفقهون! (1)
إذا هاهو الظل الأول/ العقل الأول صورة جسمية نورية وعنهما انفصلت — حسب عبارة ابن عربي — النفس الكلية، وهو (العقل الأول) أول موجود ظهر أو انفصل عن سواد الغيب المطلق أو ما يسميه الجرجاني مركز العماء أو (البضاء)، لأنه أول منفصل من سواد الغيب.

الظل الأول / العقل الأول / القلم الأعلى:

يقول ابن عربي عن هذا العقل الأول:

"إن العقل الأول، الذي هو أول مبتدع خلق، هو القلم الأعلى؛ ولم يكن ثم محدث سواه. وكان مؤثراً فيها بما أحدث الله فيه من انبعاث اللوح المحفوظ عنه، كانبعاث حواء من آدم في عالم الأجرام، ليكون ذلك اللوح موضعاً ومحلاً لما يكتب فيه ذلك القلم الأعلى الإلهي، وتخطيط الحروف الموضوعة للدلالة على ما جعلها الحق — تعالى! — أدلة عليه. فكان اللوح المحفوظ أول موجود انبعاثي. وقد ورد في الشرع: "إن أول ما خلق الله القلم ثم خلق اللوح. وقال للقلم: اكتب! قال القلم: وما أكتب؟ قال الله له: اكتب وأنا أملي عليك. فخط القلم في اللوح ما يملئ عليه الحق، وهو علمه في خلقه الذي يخلق، إلى يوم القيامة.

فكان بين القلم واللوح نكاح معنوي معقول، وأثر حسي مشهود. — ومن هنا كان العمل بالحروف عندنا — وكان ما أودع في اللوح من الأثر مثل الماء الدافق، الحاصل في رحم الأنثى. وما ظهر من تلك الكتابة، من المعاني المودعة في تلك الحروف الجرمية، (هو) بمنزلة أرواح الأولاد المودعة في أجسامهم." (2)

يسبدو هنا الظل الأول أو القلم الأعلى مفهوماً تجريدياً متعالياً، وهو — كما يبدو — يربطه مباشرة بمفهوم الكتابة التي تتطلب شقين: شقاً معنوياً وشقاً حسياً وشقاً نظرياً وشقاً علمياً. يقول في السياق نفسه:

"ثم أوجد (الله) فيه (أي في اللوح المحفوظ) صفتين: صفة علم وصفة عمل. فبصفة العمل، تظهر صورة العالم عنه (أي اللوح المحفوظ) كما تظهر صورة التابوت للعين عند عمل النجار. فيها (أي بالصفة العملية) يعطي (النجار) الصور. والصور على قسمين: صور ظاهرة حسية، وهي الأجرام وما يتصل بها حساً، كالأشكال والألوان والأكوان، وصور باطنة معنوية غير محسوسة، وهي ما فيها من العلوم والمعارف والإرادات. وبتينك الصفتين ظهر ما ظهر من الصور. فالصفة العلامة أب، فإنها المؤثرة؛ والصفة العامة أم، فإنها المؤثر فيها، وعنهما ظهرت الصور التي ذكرناها." (3)

(1) — الفتوحات المكية، السفر الثاني، 349 — 350.

(2) — الفتوحات المكية، السفر الثاني، 313 — 314.

(3) — الفتوحات المكية، السفر الثاني، 314 — 315.

ويأتي حديث ابن عربي هذا عن العقل الأول/ القلم الأعلى في سياق رؤيته لما يسميه النكاح الساري وتحتة تدرج مصطلحات كثيرة على رأسها ما يسميه الآباء العلويين والأمهات⁽¹⁾.

وهانحن نرى كيف يربط القلم الأعلى بالقوة المؤثرة التي هي قوة (الأب/ المذكر) أما الصفة الفاعلة العاملة التي تقبل التأثير فهي الأم عند ابن عربي، والنتيجة هي الحروف والكتابة، وهي مظهر لتجلي النفس الرحماني الذي يوجد الوجود ويظهره كصور وتجسد!

إن الأساس الجنسي الذي يحرك رؤية ابن عربي يتجلى في أقوى صورته هنا، ولكن هل هنا أثر أفلاطوني؟ حيث يعزو أفلاطون أصل الكلام واللوغوس إلى الأب؟ لقد لاحظ دريدا وهو يدرس أفلاطون أنه يعزو أصل الكلام إلى الموقع الأبوي. يقول دريدا:

"فيكفي أن نسلط انتباهنا دؤوبا — وهو ما لم يقم به على حد علمنا أحد حتى الآن — على تواتر رسم أفلاطوني يعزو أصل الكلام وسلطانه، اللوغوسي Le loges تحديدًا، إلى الموقع الأبوي. وذلك لا لأن هذه يحدث عند أفلاطون وحده أو يحدث عنده بامتياز. فنحن نعرف هذا أو نتخيله بسهولة. لكن ألا نقلت "الأفلاطونية" وهي التي تموقع كامل الميتافيزيقيا الغربية في مفهوميتها، من شمولية هذا الإلزام البنيوي، بل تدلل عليه بالتماع وحذق لا يضاهيان، فهذا لما يحيل الأمر أكثر دلالة. ولا كذلك لأن اللوغوس هو الأب. بل إن أصل اللوغوس هو أبوه، وقد نقول، مفارقين معجم تلك الحقبة، إن التفاعل المتكلم هو أبوه كلامه..⁽²⁾"

في فصل مهم يخصصه ابن عربي لمعرفة ما يسميهم الآباء العلويين والأمهات، وهو الذي يمهّد من خلاله للحديث عن العقل الأول يقول:

"اعلم — أيّدك الله! — أنه لما كان المقصود من هذا العالم الإنسان وهو الإمام، لذلك أضفنا الآباء والأمهات إليه فقلنا: أبأؤنا العلويات وأمهاتنا السفليات. فكل مؤثر أب، وكل مؤثر فيه أم. هذا هو الضابط لهذا الباب.

والمتولد بينهما، من ذلك الأثر، يسمى ابنا ومولدا، وكذلك المعاني في إنتاج العلوم، إنما هو بمقدمتين نكح إحداها الأخرى بالمفرد الواحد الذي يتكرر فيهما، وهو الرابط، و(هذا) هو النكاح (المعنوي) والنتيجة التي تصدر بينهما هي المطلوبة. فالأرواح كلها آباء والطبيعة أم لما كانت محل الاستحالات. ويتوجبه هذه الأرواح على هذه الأركان، التي هي العناصر القابلة للتغير والاستحالة، تظهر فيها المولدات وهي المعادن والنبات والحيوان والجنان؛ الإنسان أكملها"⁽³⁾.

وتبدو أول الأمهات السفليات عنده في منطقة المعدم الممكن، أي في المحجوب المظلل غير

(1) — ينظر مواضع يظهر فيها هذا الأساس الجنسي المحرك لرؤيته في الفتوحات المكية مثلاً السفر الثاني ص 314 — 315 — 316 ومن 320 إلى 329 يتخلل ذلك كله مصطلحه الآباء العلويون والأمهات.

(2) — صيدالية أفلاطون. جاك دريدا، ترجمة كاظم جهاد (تونس، دار الجنوب، 1998م) ص 28.

(3) — الفتوحات المكية، السفر الثاني 309.

المرئي إلى أن يتحقق ظهوره⁽¹⁾.. يقول عما يسميه الأب الأول والأم الأولى والنكاح الأول: "وهذا الباب إنما يختص بالأمهات — فأول الآباء العلوية معلوم وأول الأمهات السفلية، شينية المعلوم الممكن. وأول نكاح القصد بالأمر. وأول ابن وجود عين تلك الشينية التي ذكرنا — فهذا أب ساري الأبوة. وتلك أم سارية الأمومة. وذلك النكاح سار في كل شيء. والنتيجة دائمة، لا تنقطع في حق كل ظاهر العين. فهذا يسمى عندنا "النكاح الساري في جميع الذراري". يقول الله — تعالى! — في الدليل على ما قلناه: (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون).⁽²⁾

ظل الإله / الإنسان الكامل:

هذا المصطلح هو الثالث من مصطلحات الظل عند الجرجاني وفيه يقول:

"ظل الإله وهو الإنسان الكامل المتحقق بالحضرة الواحدية".⁽³⁾

لكن مصطلح الإنسان الكامل ليس من مبتكرات الجرجاني، وليس — من قبل — من مبتكرات ابن عربي الذي تمثل هذه الفكرة جزءاً مركزياً وأساسياً من رؤيته ومذهبه الصوفي، فقد بينت الدراسات الأصل الإيرانية الغنوصي لفكرة⁽⁴⁾ ويرى بعض الدارسين أنها موغلة في القدم أكثر من ذلك حيث جعلوا نقطة ابتدائها من ثقافة آرية أنشأت فكرة (الإنسان الأول)، كما أنها ظهرت عند المزدكية في فكرة (الكيومرث) وتجلت في (آدم قدمون) في كتب القبالة اليهودية وفي (الإنسان القديم) عند المانوية، ويرون أنها انتهت عند المسلمين إلى تكوين تصور للإنسان على أساس أنه (إنسان عين الوجود) فأحل محل (الكلمة) المتجسدة عند النصاري صورة نموذجية هي الأثر المعقول الذي تركه الخالق في المخلوق، وهذه (العين) هي النبي محمد ﷺ⁽⁵⁾، ومن بعده يأتي (الولي) الذي يقوم على ذروة مراتبه (القطب) وهو أي (القطب) يحمل الملامح والقسمات نفسها لـ (الإمام المستور) عند الشيعة، حيث الولي الكامل هو بعينه الإنسان الكامل وهو خليفة الله في الكون⁽⁶⁾.

ويرى الدارسون أن (الإنسان الأول) في المنقول الإيراني يؤدي وظيفة كونية، فهو النموذج الأول للإنسانية وأصلها، ويلعب الدور الرئيس لنشأة العالم⁽⁷⁾. وقد تبين بفضل جيتسه Goetze أنه

(1) — لدرء كلام حول موقع الأم المتواري في خلفية المشهد وثيق الصلة بهذه الرؤية إلى الأمهات في منطقة المعلوم الممكن — ينظر ص من هذه الدراسة.

(2) — الفتوحات المكية، السفر الثاني 3/1 — 3/2.

(3) — التعريفات، ص 148.

(4) — ينظر دراسة هانز هينرش شيدر بعنوان (نظرية الإنسان الكامل عند المسلمين مصادرهما وتصويرها الشعري) ودراسة لوى ماسينيون بعنوان (الإنسان الكامل في الإسلام وأصاليته النشورية) ضمن كتاب الإنسان الكامل في الإسلام للداكتور عبد الرحمن باوي (الكويت، وكالة المطبوعات، ط الثانية 1976م).

(5) — الإنسان الكامل في الإسلام وأصاليته النشورية، ماسينيون، ضمن كتاب الإنسان الكامل، ص 113.

(6) — نظرية الإنسان الكامل عند المسلمين مصادرهما وتصويرها الشعري: هانز هينرش شيدر، ضمن كتاب الإنسان الكامل في الإسلام، ص 67.

(7) — المصادر السابق، ص 25 — 26.

قد تكون بصورة كاملة في إيران في القرن الخامس قبل الميلاد تفسير للعالم شامل على أساس مبدأ التناظر بين الكون الأكبر والكون الأصغر — أي المبدأ القائل بأن العالم إنسان كبير وبأن الإنسان عالم صغير — (1)

وفي تلك الروايات عن الإنسان الأول تكمن القسمات التي تتجلى في ديانات الخلاص الغنوصية؛ حيث يبدو الإنسان الأول كائنًا ذا طبيعة إلهية، وهو يمثل — كونه النموذج الأول للإنسانية — مجموع النفوس، لكنه يظل متميزاً عن الألوهية العليا فهو يمثل الحياة الفانية وليس من القديسين الخالدين (2).

ولقد مر بنا ونحن نتحدث عن مفهوم الظل عند ابن عربي قوله إن الإنسان الحقيقي هو الكلمة الجامعة ونسخة العالم فكل ما في العالم جزء منه، وليس الإنسان الحقيقي بجزء لواحد من العالم، وقد شبه وجود الكامل بالصورة التي أَرادها الله بالقلم الأعلى واللوح المحفوظ، الذي يعبر عنه بالعقل الأول والنفوس الكلية (3). وقد كان هدف ابن عربي في مشروعه الصوفي إعادة التعدد والكمثرة إلى مبدأ الحقيقة الألوهية الواحدة، وقد كان الإنسان الحقيقي الكامل عنده هو الذي يمكنه أن يصل إلى الخلاص عن طريق المعرفة؛ فمن عرف نفسه عرف ربه، ولذلك كان الإنسان الكامل عنده هو "ماهية كلية تتطوي في وعيها.... على كل ما هو إلهي قديم وكل ما هو مخلوق حادث معاً وهو إذن كامل من كلتا الناحيتين (اللاهوتية والناسوتية) حتى إن الله والإنسان والعالم كلها في جوهرها ومضمونها شيء واحد تماماً. إنها ليست إلا ثلاثة مظاهر لفكرة أو معنى واحد، على هذا الأساس خصوصاً وهو أن الإنسان هو حلقة الوصل المتوسطة بين (الله والعالم) و(الإنسان)، مفهوماً على هذا النحو، بمثابة (خليفة) عن الله، فيه تتجلى الألوهية أو يستمر تجليه خلال العصور، أولاً — بعد النبوي — في الولي خصوصاً، وللأولياء طبقات مرتبة يقوم على ذروتها (القطب) والقطب... يحمل تماماً نفس ملامح وصفات (الإمام المستور) عند الشيعة وهذا القطب يمثل الوحي الإلهي في كل جيل. "إن الولي الكامل هو بعينه الإنسان الكامل تماماً، وهو الخليفة (الله) في الكون" (4).

ولست أود الإطالة في مصطلح الإنسان (الكامل)، وما الفقرات السالفة إلا مجرد إضاءة لما لهذا المصطلح من علاقة مباشرة بمصطلح ظل الإله، ولاشك أن الحديث المفصل حول مفهوم الظل / الوجود الإضافي ومفهوم الظل الأول / العقل الأول يغني هنا عن إعادة القول في ظل الإله / الإنسان الكامل، لأن الإنسان الكامل في النهاية ليس إلا جزءاً من المفهوم الظلي العميق الذي صدر عنه الوجود بأسره.

(1) — المصادر السابق، ص 25 — 26.

(2) — المصادر السابق، ص 32.

(3) — الفتوحات، المكية، السفر الثاني، ص 300، وينظر ص (9) من هذه الدراسة.

(4) — نظرية الإنسان الكامل عند المسلمين ومصادرها وتصويرها الشعري، ضمن كتاب الإنسان الكامل في الإسلام، ص 67.

ثبت المصادر والمراجع

- لسان العرب، ابن منظور، بيروت، دار لسان العرب، د. ت.
- لغز عشتار، فراس السواح، دمشق، دار المنارة، ط. الرابعة 1990م.
- معجم الأساطير، ماكس شابيرو و روادانديكس، ترجمة حنا عبود، دمشق، دار علاء الدين سنة 1999م.
- الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر 1965م.
- نظرية الإنسان الكامل عند المسلمين مصدرها وتصويرها الشعري. عبد الرحمن بدوي، الكويت، وكالة المطبوعات ط. الثانية 1976م.
- المقالات:**
- مقالة الذات في عين المادة
- فاطمة الوهبي (جريدة الجزيرة الأحد 1417/4/4 — 1998/8/18م)
- مقالة (السروس يدرسون المظهرين الداخلي والخارجي..)
- (جريدة الشرق الأوسط 23 مارس 1995م).

- القرآن الكريم.
- الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، صححه وضبطه أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت، المكتبة العصرية 1373 هـ / 1953م)
- التعريفات، الجرجاني، بيروت، مكتبة لبنان سنة 1978م)
- تفسير ابن كثير، ابن كثير، بيروت، دار المعرفة ط. الثانية سنة 1407 هـ / 1987
- رسائل ابن عربي، ابن عربي، حيدر آباد الدكن ط. الأولى سنة 1367 هـ .
- فصوص الحكم، شرح الأستاذ عبد الرزاق القاشاني على فصوص الحكم لمحيي الدين بن عربي، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي ط. الثانية 1386 هـ / 1966م).
- صيدلية أفلاطون، جاك دريدا، ترجمة كاظم جهاد، تونس، دار الجنوب سنة 1998م.
- الفتوحات المكية، ابن عربي، تحقيق د. عثمان يحيى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1392 هـ / 1972.
- كتاب العبادلة، ابن عربي، تحقيق عبد القادر أحمد عطار، القاهرة، مكتبة القاهرة، ط. الأولى سنة 1389 هـ / 1969م.

